

الصيام والنظام.. إ يصل الإنسان حد الاعتدال



في هذا الشهر - رمضان - فريضة محكمة، حباهـا إـ بالفضل والفضائل، ورفع بها قدر الصائم الذي أخلص صومه طاعة لربه، فهو ذلك الإنسان المسلم الذي نزل على حكم ربه، فما إن شهد الشهر - رمضان - حتى عقد نيته على الاستجابة للنداء: (فَمَنْ شَهِدَ مِنْ دُكْمُ الشَّهْرِ فَلْيَصُمْهُ) (البقرة/ 185)، إذعاـناً لهذا الأمر الذي تنـزـل في القرآن مؤمنـاً بالعبودية، منـذـاً حـكمـهـ غير متسـائل عن حـكـمةـ أو عـلـةـ، خـضـوعـاً، وخشـوعـاً، غير مـجـادـلـ، ولا مـحاـورـ، حـجبـ النفس الأمـارةـ بالسوء عن القـيلـ والـقالـ، وكـثـرةـ السـؤـالـ، في مـضـاءـ عـزـيمـةـ، وـنـقـاءـ سـرـيرـةـ، مـقـبـلاـ على الطـاعـةـ، غير مدـبرـ، ولا متـهاـونـ ولا مـخـتـلقـ لـلـأـعـذـارـ؛ لأنـهـ يـعـلـمـ أنـ رـبـهـ يـسـمـعـ وـيـرـىـ. ذلك هو المسلم الذي انصـاعـ للأـمـرـ، فـصـامـ غير مـتسـائلـ عن قـدـرـ الأـجـرـ، وإنـماـ مـلـتـحـفـ بـالـصـبـرـ، نـاءـ عنـ الـوـزـرـ، يـلـتـمـسـ قـبـولـ التـوـبـةـ وـالـمـغـفـرـةـ، وـهـوـ فيـ قـرـارـةـ نـفـسـهـ يـؤـمـنـ بـأنـ شـعـ إـ قادرـ علىـ إـصـلاحـهـ وـتـنـظـيمـ أـمـورـ حـيـاتـهـ، فيـ مـعـاـشـهـ وـمـعـادـهـ. ثمـ انـبـرـىـ يـنـصـحـ الضـالـلـينـ الـذـيـ أـلـفـواـ اللـغـوـ وـالـجـدـلـ، وـإـنـ كـانـ وـلـابـدـ منـ فـلـسـفـةـ الـعـبـادـاتـ، فإنـ الصـومـ رـياـضـةـ بـدـنـيـةـ وـنـفـسـيـةـ، تـجـمـعـ بـيـنـ حـرـمانـ النـفـسـ مـنـ لـذـاتـهـ الـمـادـيـةـ بـقـدـمـ تـرـبـيـتـهـ، وـبـيـنـ إـمـتـاعـهـ بـقـوـةـ الرـوـحـ، بـمـلـءـ الـقـلـيلـ منـ خـشـيـةـ إـ، وـتـفـرـيـغـ الـجـسـدـ مـنـ بـوـاعـثـ الـجـشـعـ وـالـطـمـعـ، وـتـعـوـيـدـهـ الـقـنـاعـةـ وـالـرـضاـ بـالـقـلـيلـ المـفـيدـ توـسـلاـ إـلىـ شـكـرـ إـ المنـعـ، وـتـكـفـيرـاـ عـماـ يـكـونـ قدـ سـلـفـ منـ سـوـءـ الـأـدـاءـ بـمـاـ يـعـدـ كـفـرـاـ نـعـمـ إـ الـتـيـ لاـ تـحـصـىـ عـلـىـ الإـنـسـانـ، حتـىـ يـتـوـصـلـ الـمـسـلـمـ الصـائـمـ حـقـّـاـ، الـعـارـفـ لـحـقـيـقـةـ الصـومـ وـحـقـوقـهـ، إـلىـ تـزـكـيـةـ النـفـسـ بـالـصـومـ، وـإـصـلاحـ الـبـدـنـ بـالـتـدـرـيـبـ عـلـىـ الـاعـتـدـالـ فيـ

المأكولات والمشرب وسائر الرغبات التي تطعى وتفسد، ولا تكون هذه التزكية.. إلا إذا ووجهت النفس بإرادة حازمة، تلزمها الانتظار على النظام، وإيقافها عند حد الاعتدال، والبعد بها عن التفريط والإفراط وذلك ما قرره القرآن لصالحبني الإنسان ففي سورة الأعراف: (يَمَّا بَذَّرَ
آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَكُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُّوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا
إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَمَ زِينَةَ اللَّاهِ إِنَّهُ
أَخْرَجَ لِعَبَادَهُ وَالطَّيْبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هَيْ لِلَّهِ دِينُ آمَنُوا
فِي الْحَيَاةِ الدُّرْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّمَا حَرَمَ رَبُّكَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ
مِنْهَا وَمَا بَطَانَ وَالْإِثْمُ وَالْبَغْيُ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنَّ تُشْرِكُوا
بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْذَرْ لِمَ سُلْطَانًا وَأَنَّ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ) (الأعراف/ 31-33).. إن الصوم يواجه قضية الإسراف، بل والإتلاف بحزم وعزما،
ذلك أن الله الذي خلق فسوى، وقدر فهدي، يعلم حال هذا الإنسان الذي جعله خليفة في الأرض،
فشرع له ما يواجه به نوازع نفسه، ومسالك هواه التي إن اتبعها واستغرق فيها أردهته
وأهلكته، وقد ربط الله صلاح النفس والجسد برباطوثيق فسخر للإنسان جميع ما في عالمه الذي
يعيش فيه من المواد والقوى: (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
حَمِيعًا مِنْهُ) (الحاوية/ 13)، صحة وسلامة لبدنه، تمتد صحة لنفسه وعقله، وحرم عليه ما
يضر بجسمه، كما حرم عليه ما يودي بروحه وعقله، وكان من هذه المحرمات الإسراف: الإسراف في
ال الطعام والشراب، الإسراف حتى في العبادة؛ فقد نهى رسول الله (ص) أصحابه عن الوصال في
الصوم، باعتبار أن الإسلام دين الوسطية والاعتدال حتى في العبادة، وفيتناول الحلال، ونعني
على المسرفين والمبذرین ما اقترفوا في حق أنفسهم، كما نعني على المقترين الذين غلوا
أيديهم واحتسبوا أموالهم فقال في سورة الإسراء: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى
عُنْدِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا) (الإسراء/ 29)..
فمن أسرف فقد أفسد، ومن قتر فقد أفسد، ومن توسط فقد صلح وأصلح. ثم إن قضية
الإسراف تمتد إلى جوانب كثيرة في حياتنا، فليست ممثلة في الطعام والشراب الذي جاء الصوم
ليعيد التوازن في شأنهما وليلزم بالنظام الأمثل فحسب، وإنما ينبغي أن يتمتد هذا التوازن
إلى كل ما في أيدينا مما أنعم الله به من نعم ظاهرة وباطنة، فهذا الماء نسيء استعماله،
ولا نحسن ادخاره، مع أنه حياة كل شيء: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)
(الأنبياء/ 30).. نسرف بل ونتلف الماء في سائر استعمالاته، لا سيما بعد أن يسرت لنا
وسائلنا المعاصرة مرافقته لنا على امتداد العمران شهيّاً نقيّاً، يبدو سوء الاستعمال
إذا أبصر كل منا مراافق بيته أو المسجد أو المدرسة أو غير هذا، حيث نجد الماء ينساب من

الصنا بير مهداً لا يهتم به أحد ولا يستفيد منه زرع أو حيوان أو إنسان، وهذا الإسراف على هذا الوجه يشق مرافق أخرى ويرهقها، فتضيق به ولا تطيقه.. وتنفجر به الطرقات والشوارع، وتنفق الأموال، ويبذل الجهد لإصلاح ما أفسده هذا الإسراف. وهنا نحن نشكو الجفاف أو نتخوفه، ومع ذلك لم نحاول إيقاف الإنلاف الذي استمرأناه أو نتدارك الإهمال الذي اعتدناه، مع أنَّ الصوم من أهدافه أن يعودنا على النظام، يتبدل به سين العادات حسناً، ونوع آخر من الإسراف شاع وذاع في القرى والأمصار، وبينما نشكو ضعف الموارد من المياه، والذي تأثر به إنتاج الكهرباء، ترانا وقد أمعنا في استنزافها واستهلاك مصادرها، ولم نبادر إلى الاقتصاد في الاستخدام لهذه القوى التي أنعم الله بها على الإنسان في هذا العصر، وكأنَّه قد طغى واستكبر: (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَعْلَمُ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ ذِي عَزَّةٍ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُمْ مِنْهُ قُوَّةٌ وَأَكْثَرُ جَمِيعًا وَلَا يُؤْسَأُ لِعَنْ دُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) (القصص/78).. إنَّ الماء نعمة.. وإنَّ الكهرباء وغيرها من الطاقة من نعم الله التي وصل إليها الإنسان بما علمه الله من علم، ومنحه من فهم، وسخر له كل ما في هذا الكون، وشكر النعمة بالحفظ عليها واستعمالها بقدر الحاجة إليها، فكفوا أيها الناس عن الإسراف والإخلاف وقفوا عند الوسط من الأمور. إنَّ الصوم نظام وتنظيم، فرضه الله شهراً في العام، يراجع به الناس ما فسد من الطعام وما نشأ من العادات والأعراف غير المشروعة ليعدلوا عنها إلى ما هو أحسن منها، وما كان شهر رمضان موسمًا لهذه المآدب الصاخبة التي تتتنوع عليها المطاعم والمشرب وتفسد بها الأنفس والأبدان. وما كان شهر الصوم إلا ووقفة مع النفس، تردعها عن الغي وعن البغي وعن الإنلاف، ما كان شهر الصوم إلا موسم محاسبة ومحاسبة، محاسبة للنفس والبدن بما فرط منها في جنب الله، ومحاسبة لكل السوء والسيئات من الأفعال والأقوال والعادات والأعراف طلباً للهدي واستقامة على طريق الله وشرعه. ما كان شهر الصوم إلا لإصلاح المعايير وإحياء للفطرة التي فطر الله الناس عليها، إذ حين تفسد الفطرة تختل الموازين، وتنفلت المعايير التي شرعاها الإسلام لضبط المسار الإنساني في الحياة، وعندئذ تصيب شعائر العبادات شيئاً بلا روح، وشكلًا بغير مضمون. أعلموا أيها الناس أنَّ الصوم نوع من طب الأجساد والأنفس، وباب من السياسة في تدبيرها، إن هذا الشهر - رمضان - نظام عمل يعتاده من ارتاده إيماناً بالله وإخلاصاً لعبادته، وهو عبادة جبرية يتساوى فيها الجميع: من ملك، ومن خلت يداه، كما يتساوى الناس جميعاً في صفوف الصلاة التي كانت أوائلها لمن سبق دون نظر إلى تفاوتهم الاجتماعي، إنَّ الصوم يشعر المصائم بالمساواة بطريقة عملية حيث يتساوى الناس في الشعور والأحساس، وإن كانوا يختلفون أو يختلفون أسباب الخلاف في أمور أخرى، وحين يتعاطفون بإحساس الألم المشترك، لا حين تتنازعهم الأهواء المتعددة. إنَّ الصوم دعوة

إلى الاعتدال في كل شيء، في ملء البطن، في الماء، في الكهرباء في الجدل والمراء، إِنَّه دعوة إلى تهذيب النفس وإصلاح المنطق، فإن آفة اللسان أبعد أثراً من جراحات السنان، إِنَّه دعوة إلى تطهير العالم الإسلامي من الرذائل الجسدية والنفسية، ودعوة إلى الأخذ بمعاني الصبر والثبات والمواساة والإحسان، وحفظ اللسان حتى تتحقق – بصدق – في المجتمع معاني الإباء والمساواة والحرية. إنَّ الصوم تأبى طبيعته وخواصه في الإسلام أن يكون مجرد جوع وعطش؛ إذ ليس هـ حاجة في ذلك وإنما هو تهذيب وإصلاح، وتوجيهه وتدريب، وتحجيم للسوء والسيئات، إِنَّه اتقاء أضرار لجلب منافع، واتقاء الرذائل لجلب الفضائل، إِنَّه تشريع اجتماعي للإنسانية تتقي به سوء وشرور الأنفس: (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبُّهـ) (يوسف/ 53). فلنکف عن كل ما يثلم الصوم ويفسده، ولنعتدل في كل شيء في الطعام والشراب: "حسب ابن آدم لقيميات يقمن صلبه" .. كما ورد في الحديث الشريف.. ولنقل خيراً أو لنصلت، ولینته أولئك الذين دأبوا على التشكيك في شرع اللهـ والمصد عن دين اللهـ، بباطل القول وزوره، ولیغتنموا شهر الصوم ويتوبوا عما اقترفوا في جنب اللهـ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنَّ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) (النساء/ 48). إنَّ الصوم قانون ونظام عام، يضبط العمل والتعامل، يجلب الفضائل ويعظمي من الرذائل ويقي مصارع السوء، ويحمي النفس والبدن، فاحفظوا النظام والتزموه: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَدُوا كُتُبَ عَلَيْكُمُ الصَّيَامُ كَمَا كُتُبَ عَلَيَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (البقرة/ 183). المصدر: كتاب (منهجُ الإسلام في التربية والإصلاح)